تعريف بالكتاب

كان شاتوبريان صاحب نظرة فلسفية الى الحياة الاجتماعية ، وكان رائدا مقدما لمدرسته الأدبية ، وكان مثلا يحتذى فى أسلوب الكتابة ، وكان مؤرخا للعقائد الدينية والسياسية .

ولكنه — فى جميع هذه المقاصد — لا تقاس مكانته بمقدار صوابه أو خطئه ، ولا بمقدار ما عنده من سعة المعرفة وضيقها ، وانما تقاس مكانته فى عالم الفكر وعالم السياسة ، وعالم العقائد الدينية والاجتماعية ، بمقدار دلالته على زمنه ، وعلى الأثر الذى يتلقاه عن الزمن من كان فى مثل مزاجه وسيرته وطبقته بين طبقات أمته ، بالنسبة الى الذين عاصروه وظهرت عليهم دلالة الزمن بغير ما ظهرت عليه .

ولد فى أعقاب الثورة الفرنسية من أسرة نبيلة ، ولكنها لا تعتز بكل ما يعتز به النبلاء من مزايا الرياسة والجاه ومن بواعث الاصرار على تقاليد المحافظة وحب القديم ، فكان محافظا فى أشياء ، ومجددا أو مستعدا للتجديد فى غير ذلك من الأشياء ، وكان ايمانه بنظام العروش الملكية يسمح له أن يقبل هذا النظام على عهد نابليون وان فضل عليه أسرة البربون ، وفى ذلك شىء من المحافظة وشىء من التجديد ، ومجاراة للثورة لا تذهب به الى حد الايمان بكل ما جاءت به من المبادىء الديمقراطية ، ولكنها لا تجمد به على عهد الملوك « الشموس » .

وكان يعيش فى عصر الشكوك الدينية ، ولكنه أراد أن يلبس

لباس الكهنوت ؛ فلم تبلغ به المحافظـــة المترددة الى هذا الحد ، بل وقفت به عند الموازنة بين الديانة الأولى وبين نزعات الالحاد والانكار ، فبشر بالدين كما كان فى عصر الدعوة المسيحية على بساطتها الأولى ، وسطا بين الشعائر الكثيرة وبين الوثنية الطبيعية ، ووسطا بين الايمان والانـــكار .

وكان سخطه على الحاضر يجنح به الى « البدائية » فى كل شىء ، ولكنه لم ينس أناقته الموروثة من طبقته الأرستقراطية ، مع سهولة التبسط أو بساطة الســـهل الممتنع فى التعبير على ســـنة العصر الحديث .

ونشأ وهو يستمع الى فلسفة « روسو » عن الهمجى النبيل ، فكان نبيلا فى دعوته الى بســـاطة الفطرة ، وساومت طبيعته بين الأرستقراطية فى عصره الذى ينقم منه ويتمرد عليه ، وبين الحياة البدائية على سنة الفطرة ، فجمع بينهما : فى النبل الفطرى ، والفطرة التى تتسم بين الغاب والصحراء بسمات النبلاء .

ولقـــد كان « كاثوليكيا » فى الصميم بحكم وراثتـــه على العهـــد القديم ، ولكنه صور المسيحى على ما يرضاه فى أبطال رواياته وبطلاتها فاذا هو المسيحى الأول فى عهد الرسل والشهداء .

فاذا قدرت له مكانته الفكرية ، والنفسية ، فهو على أكرم أقداره حين يقال عنه أنه دليل صادق على العصر كما يمثله النبيل فى مثل حاله ومثل علاقاته بمجتمعه ومعبده ، وان آية الاخلاص المطبوع فيه أنه كان فى سياسته وعقيدته وشعوره بالمجتمع والطبيعة كما ينبغى أن يكون .

وهـــذا الصدق فى الاســـتجابة لمؤثرات زمانه هو الذى أقامه فى مدرسته الأدبية مقام المتبوع ، وهو الذى جعله اماما يقتدى به أمثال لامرتين وفلوبير وچورچ ساند وبيير لوثى وغيرهم من جيله وما بعد

جيله ، وفيهم من هو أصح منه نظرا وأوسع منه علما وأقدر منه على فهم حقائق الاجتماع ووقائع التاريخ ، ولكن ليس منهم أحد هو أصدق منه دلالة على العصر الذى عاش فيه وعلى البيئة التى خرج منها .

ولقد كان حبه للطبيعة حبا يغلب فيه ذوق الفن على حب الحياة فى أحضان الطبيعة كما كان يحبها زميله فى هذه المجموعة « ثورو » .

فأحب ما كان يحبه من الطبيعة أنها موضوع جميل للوصف الفنى الجميل . وقد أصاب الأستاذ ميخالوبولس فيما يلى من الحوار حين قال انه كان « يستخدم الطبيعة لأغراضه الأدبية ، وانه من المشكوك فيه كثيرا أن يكون نظره وقع على نهر المسيسيبى ، ومع هذا فهو يصفه وصفا رائعا ... ولكن كلامه عنه مفعم بالمغالطات المؤثرة ، فهو يقول : انه — أى نهر المسيسيبى — سئم وهو قريب من منبعه أن يكون قصارى أمره جدولا ضيق الحدود ، فتوسل الى الجبال أن تمنحه ثلجها ، والى التيارات أن تمنحه ماءها ، والى الزوابع أن تمنحه أمطارها ، وبهذا المدد فاض على ضفتيه واجتاح الحقول الساحرة التى تحف به ... » وهذا وصف لا ينطبق كثيرا على المسيسيبى كما قال الأستاذ برايزون ، ولكنه كما أجابه زميله — غاية فى الجمال .

وهذا أسلوب فى وصف النهر كأسلوب المصور الذى يبحث عن نموذج للأنهار ينقله من وحى قريحته كما يرتضيه ويتخيله ، وليس بأسلوب الطبيعى الذى يمازج الطبيعة بشعوره ، ولا هو بأسلوب الرحالة الذى يحقق الخرائط الجغرافية على صفحات أطلسه .

وليست أخطاء شاتوبريان كأخطاء ثورو التى ألمعنا اليها فى تقديم كتابه « والدن » ... لأن ثورو قد كان يرى الطائر الحقيقى ولا يدعى على الواقع شيئا غير مخالفة الاسم دون مسماه ،

أما شاتوبريان فان أخطاءه فى التصوير انما هى عمل مقصود كعمل النحات الذى يغير فى ملامح الوجه المنظور ليصبح على وفاق المثال المختار لمظهر الجمال ، أو هى كعمل المجمّل الذى يضع المساحيق على الوجه من عنده ليدارى لونا يراه عيانا بلون يسرّه أن يراه ، كما تخيله وارتضاه .

وهذه هى « الطبيعة » التى تغنى بها شاتوبريان : طبيعة فنان يختارها لريشته لأنها موضوع للتصوير أحب اليه من الواقع الذى لا يرتضيه فى الواقع ولا فى الخيال .

وقد يلاحظ هذا على تصويره للعقيدة الدينية كما يلاحظ على تصويره لمناظر الطبيعة ، فان صور الاستشهاد والخطيئة فيما كتبه عن تاريخ المسيحية تنقل الاستشهاد من بطولة القداسة الى بطولة الملاحم فى أساطير الشعراء ، وتنقل الخطيئة من زلة يقع فيها الضعف البشرى الى عاطفة يتغنى بها الشاعر المفتون ، وقد أصاب الأستاذ بولدنج فى قوله تعليقا على تواريخ شاتوبريان عن الدين : « ان شاتوبريان والمسيحية شيئان لم يجتمع شتاتهما قط .. » ولكنهما — ولا ريب — قد اجتمع شتاتهما حق الاجتماع بالهام الريشة الفنية التى تصف الشهيد كما تصف الخطيئة شعرا يترنم به الشاعر فى موقف الغناء ، ولا تصفها تسبيحا يرتله الناسك فى محراب الصلاة .

وقد كان أناتول فرانس يأخذ على شاتوبريان هذا التسخير للطبيعة فى مواقف حياته حتى موقفه الأول منها ساعة ميلاده ... فهو — كما قال أناتول فرانس — يأبى أن يولد كما يولد سائر الناس ، ويثير الزوابع والسحب تمهيدا لذلك الحادث الخطير : حادث خروجه الأول الى دنياه .

ومن الاسراف فى سوء الظن بمزاج الرجل أن نحسبها « أنانية » منه تسخّر له الطبيعة وتوحى اليه أنها تردد له صداه وتعيد عليه سيرته الباطنة على هواه .

فهكذا كان شعراء الطبيعة ونساكها كيفما كانت محبتهم لها ورغبتهم فى جوارها .

وحسبنا أن نراجع هـــذه المجموعة التى يتلاقى فيها ڤرجيل وجيتى وثورو ووردزورث وشاتوبريان ، فانهم جميعا من عشاق الطبيعـة الذين أحبوها ووصفوها وبشروا بدعوتها على أساليبهم المنوعة فى الحب والوصف والتبشير ، وانهم جميعا قد كتبوا سيرة حياتهم فى تراجم صريحة أو فى مضامين ما نظموه أو نثروه .

وقد يقال انهـــا أثر من الأثرة ، ونزوة من نزوات « الأنانية » تشغلهم بنفوسهم فيخيل اليهم أن النفوس جميعا مشغولة بأخبارهم وأسرارهم فى السر والعلانية ، تواقة مثلهم الى التحدث والاستماع الى تلك الأخبار والأسرار .

وأدنى من ذلك الى الانصـــاف أن نذكر أن حب الطبيعة علامة صـــادقة على فيض الشعور وتدفق الحيـــاة ، وان عشاقها هؤلاء لا يؤثرون صحبتها على صـــحبة النـــاس الا لأنهم يلتمسون بين أبناء عصرهم من يتقبل منهم هـــذا الفيض ويستجيب له أو يجيب عليه بجوابه ، فهم يفتحون نفوسهم لقرائهم من وراء صفحاتهم ، ويطلقون ذلك الفيض لمن يتلقاه من أبناء اليوم وأبناء الغد ، لأنهم يضيقون به وهو حبيس مكظوم فى طوايا الصدور .

عباس محمود العقاد